رايات الإسلام

في القادسية

رايات الإسلام

في القادسيّة

بقلم : وصفى آل وصفى

الطبعة الثانية

راياتُ الإسلامِ

بَدأ القَرنُ السّابعُ المِيلادىُّ والعَربُ فى شِبْه الجَزِيرةِ ضِعافٌ ومُتفرِّقون ، يَطْغَى عَليهمُ الفُرسُ بالعِراقِ – فى الشَّرقِ . . والرّومُ بالشّامِ – فى الشَّمالِ . .

وبُعِثَ الرسولُ ﷺ فغَيَّر الإسلامُ حياةَ العَربِ تَغييراً تامًّا . . أمَدَّهم بقوَّةٍ حقَّقتِ المُعْجزاتِ ، وجَمَعتْهم – فى ظِلِّ راياتِه – طُمأْنِينَةٌ نفسيَّةٌ تَنْبع من سماحَتَه . . وحَماسةٌ بُطولِيّةٌ تَبعثُها فِيهِم أهدافُه العَظِيمةُ . .

وكانت – « مكّةُ » المَدينَة الأُولَى فى شِبْه الجَزِيرةِ التى تَمْتدُّ حوالَىْ ألفِ كيلو مترٍ من الشّرقِ إلى الغَربِ . . ومايزيدُ عَلى ذلكَ من الجَنوبِ إلى الشَّمالِ ، لكنَّ هِجرَةَ الرسولِ ﷺ نَقلَتْ مقرَّ القِيادةِ الإسلاميةِ إلى « يَثْرِبَ » التى أصبحَتْ تُعرَفُ باسمِ « المَدينةِ » . .

وتُوفِّىَ الرسولُ فى العامِ الحادِىَ عَشَر الهجرىِّ – السنةِ ٦٣٢

الميلاديّة – فتتابعَ الخُلفاءُ الرّاشِدونَ بالمَدينةِ ، ومنهَا سَارَتْ راياتُ الإسلامِ لتُوَحِّدَ شِبْهَ الجَزيرةِ الْعَربيّةِ ثمَّ انْطلَقتْ إلى العراقِ والشامِ ومصرَ . تُبشِّرُ الشعوبَ بالتَحْريرِ ، وتزُفُّ إليها العدْلَ والحريّةَ . . وتصحَبُ المُؤمنينَ فى مَعاركَ خالِدةٍ ، ماتزالُ أخبارُها تُرْوَى فتُثيرُ الإعجابَ لَدَى القادَةِ والجُنودِ ، وتَغرِسُ العزَّة فى نفوسِ النّاشِئة . .
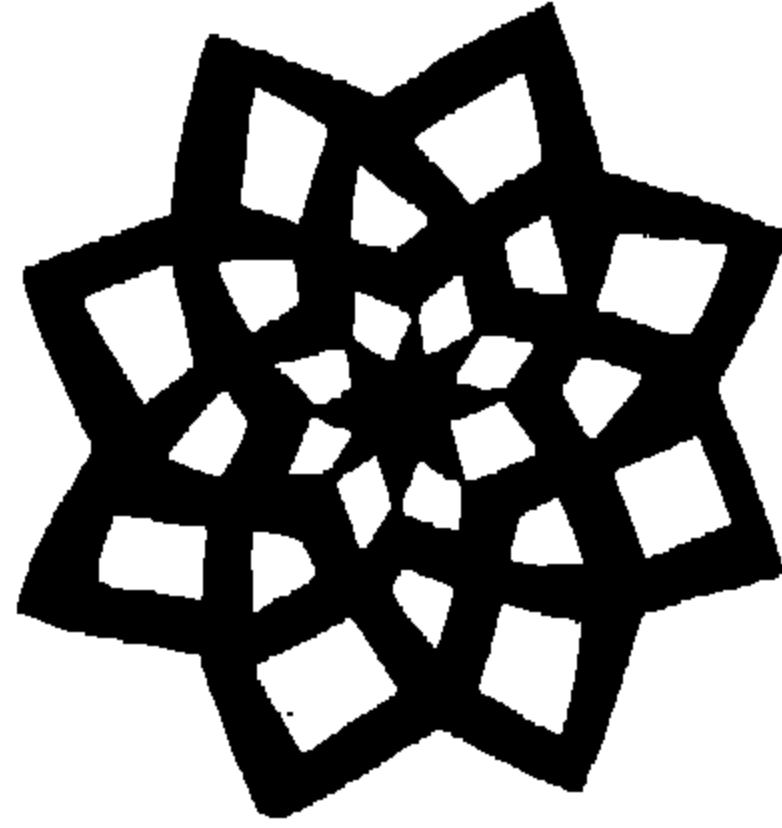
فى القادسية

١

إنَّ مَعْرَكةَ « القادِسيَّةِ » من أعْظمِ المَعاركِ التى سجَّلَها التاريخُ ؛ إنّها شَهادةٌ تُطالِعُها الأجيالُ ، فتهتَزُّ مشاعِرُها إعجاباً بالشّجاعةِ التى لايُعرَفُ لَها مَثيلٌ ، والإيمانِ الذى يَغذُو تلكَ الشجاعةَ . .

والقادسيَّةُ لم تكُنْ أولَ مَعاركِ العَرب بالعِراقِ ، فتعالَوْا أصدِقائى نرجعُ إلى الوَراءِ قليلاً . .

بعدَ وفاةِ الرَّسولِ ﷺ ارتَدَّ – كما تَعلَمون – بعضُ العَربِ من حَديثِى العهْدِ بالإسلامِ . . وشُغِل « أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ » . . أولُ الخُلَفاءِ الرّاشِدينَ . . بذلكَ الخطرِ الداخِلىِّ بعْضَ الوقتِ . فلمَّا قَضَى المُسلِمون على جَماعاتِ المُرتَدِّينَ فى « اليَمامَةِ » ، بدأَ أبو بكرٍ يُفكِّرُ فى تَحريرِ العِراقِ . . والشَّام . .

يُحرِّرُهما ؟ أَجَلْ . . فمنذُ وقتٍ مبكِّرٍ انتشَرتِ القَبائِلُ العربيّةُ فى العِراقِ والشّامِ ، وكانَ لَها فِيهما نُفوذٌ يَكادُ يكونُ مُستَقِلاً عن الإمبراطوريّتَيْن المجاوِرتَيْن . ويحدِّثُنا التاريخُ كيفَ استَقرَّ العَربُ بالعراقِ ، وأنشَئُوا فيهِ المُدُنَ ، ومنها « الحِيرةُ » الّتى اتَّخذُوها عاصِمةً لدَوْلتِهم أربعةَ قُرونٍ . . مِن القَرنِ الثّالثِ الميلادِىّ إلى القَرنِ السّابعِ . وفى القَرنِ السّابعِ تمكَّن الفرْسُ من القَضاءِ على الحُكْم العَربِىِّ فى الحِيرة ، وأقامُوا عليْها حُكّاماً من قِبَلِهم . .

وَبينَما أبو بَكرٍ يُفكِّرُ ليُقرِّرَ : أَىُّ البَلدَيْن يَبْدأُ بتَحْريرِه : العِراقِ . . أمِ الشّامِ — جاءَتْه الأنْباءُ بِزَحْفِ المُثَنّى إلَى العِراقِ . . ثم جاءَ المُثَنَّى نفسُه إلى المَدينةِ !

« والمُثَنَّى بنُ حارِثَةَ الشَّيْبانِىُّ » سيِّدٌ من بَنِى بَكرٍ أهلِ « البَحْرَيْنِ » ، وكانَ له دَوْرٌ هامٌّ فى قِتالِ المُرْتدِّينَ فلمَّا انتَهتْ حُروبُ الرِّدَّةِ سارَ برِجالِهِ على ساحِلِ « الخَليج العربِىِّ » حتَّى بَلَغَ مَصَبَّ « دِجْلَةَ » و « الفُراتِ » ، وطَرَدَ الحامِياتِ الفارسيَّةَ من الجِهاتِ المُجاورةِ . .

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ
الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ
مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا
مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ

وتَعاهَدَ المُثَنَّى والقبائِلُ السّاكِنَةُ بيْن النَّهريْنِ ، ثمَّ أسرَعَ إلى المَدينةِ يطلُب مِن الخَليفةِ أن يُبارِكَ ما أقْدَمَ عَليهِ ، ويأذَنَ له فى إتْمامِ مابَدأَه . .

واستَشارَ الصِّدِّيقُ « الصَّحابَةَ » ثمَّ عَقَد لِلمُثَنَّى لِواءَ القِيادَةِ على القُوَّاتِ التى سارَتْ معَه مِن البَحْرَيْن . . وعقَد لِواءَ القِيادةِ العامَّةِ لـ « خالدِ بْنِ الوَليد » ! وهكذا بدَأ تَحْريرُ العِراقِ . .

٢
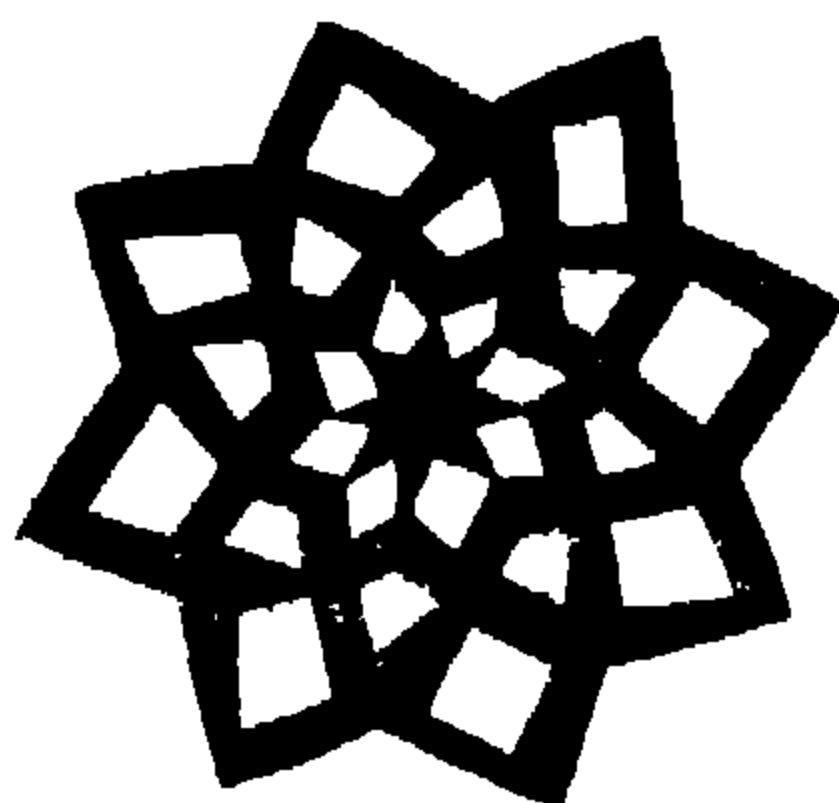
سار خالِدٌ ، ومعَه المُثَنَّى ، إلى الخَليجِ العَربىِّ . . وهُناك – بالقُرْبِ من عَينِ الماءِ المُجاورةِ لِبَلْدةِ « الحَفِيرِ » – التَقَى الجَيشُ العربىُّ والجَيْشُ الفارِسِىُّ ، وعلَى رأْسِه « هُرْمز » .

كانَ هُرْمُزُ حاكِمُ المِنْطَقَةِ – من كبارِ الأُمَراءِ الفُرْسِ ، وكان مِن أسْوأ الحُكّامِ وأشدِّهِم قَسْوةً . . حتّى لقدْ ضَرَب العَربُ به المَثَلَ فى الخُبْثِ فقالُوا : « أخْبَثُ من هُرْمُزَ » . . و « أكْفَرُ من هُرمُز » !

بَعثَ خالِدٌ إلى هُرْمزَ يَدْعُوه إلى الإسلامِ ، فأبَى وَاستكْبَر . وقبْلَ أن يَبْدَأَ القِتالُ نادَى هُرمُزُ خالِداً أن يخْرُجَ إليه ويُبارِزَه ، بعْدَ أنِ اتّفقَ مع عِصابةٍ من فُرسانِه أن يَنْتظِروا حتّى يَقْتِربَ القائدُ العَربىُّ ثمَّ ينْقَضُّوا عَليهِ ويغْتالُوه ! غَيرَ أنّ فارِساً من العَربِ تَنبّه لِلحِيلَة ، فتَصدَّى لعِصابةِ الاغتيالِ فى الوقْتِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ
ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ
وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ

المُناسبِ ، عَلى حينَ كان خالِدٌ يَصْرعُ هُرمُز !

وهجَمَ المُسلِمون ، فَانْهزم الفرْسُ أمامَهم . .

واتّصلَتِ المَعاركُ بعْدَ ذٰلِك ، واللهُ تعالَى يَنْصُر جُنودَه ، فيَفْتَحُون « أُلَّيْسَ » على نهْرِ الفُرات . . ثم يَسيرون إلَى الحِيرَةِ ، فيَدْخُلونَها بعْدَ حصارٍ ، ويتَّخذُونها مركزاً للقِيادةِ .

وإذا بالخَليفةِ يأمُرُ خالِداً بالتوجُّه إلى الشام !

لِماذا ؟

لأنَّ الرُّومَ الذينَ كانوا يُتابِعونَ الانْتِصاراتِ العَربيةَ فى العراقِ قَرّروا أن يبْدَءوا الصِّراع معَ المُسْلِمينَ قَبْل أن يَفْرُغوا مِن قِتالِ الفُرسِ ، واستَطاعُوا أن يَسْتَدْرِجوا القُوَّةَ العربيّةَ المُرابِطَةَ عَلَى حُدودِ الشّامِ ، وأحاطُوا بها قُرْبَ « دِمَشْقَ » وَكبّدُوها خسائرَ كبيرةً . . وسَيَّرَ الخَليفَةُ إلى الشَّامِ خَمسةَ جيُوشٍ بلغَ مجموعُها أرْبعةً وثلاثينَ ألفَ مُقاتِلٍ ، وحَدَّدَ لِكلِّ جيْشٍ منها هَدَفاً يتَّجهُ إليه . . فأحَسَّ الرومُ خُطورَةَ الموقفِ ، وحَشَدُوا فى مُواجَهةِ المُسلِمينَ مِائَتَيْن وأرْبَعينَ ألْفاً من جُنودِهم !

عِنْدئِذٍ قَرَّر أبو بكرٍ أنْ يَتَولَّى القيادَةَ فى الشّامِ فارسٌ لمْ يَعْرِفِ الهَزيمةَ قَطٌّ ، وقالَ عبارَتَه المَشهورَةَ : « واللهِ لأُنسِيَنَّ الرومَ وساوِسَ الشّيطانِ بخالدِ بنِ الوَليد ! » . .

وسارَ خالِدٌ إلى الشّامِ بقِسمٍ مِنَ القوّاتِ العربيّةِ التى فى العِراقِ ، وتركَ المُثَنّى يُواجِهُ جيوشَ الإمْبراطوريَّةِ الفارسيّةِ بالقِسْمِ الباقِى ، وعَدَدُه لايَتَجاوزُ عشرةَ آلافٍ . ومعَ ذلكَ تَمكَّنَ المُؤمِنونَ من الانِتِصارِ عَلى الفُرْسِ فى عَددٍ من المواقِعِ ، وأوْشكُوا أن يَبلُغُوا عاصمةَ الفُرسِ التى أقامُوها فى العراقِ : « المَدائِنَ » !

لكنَّ الفُرسَ شرَعُوا يُجَنِّدونَ جيْشاً ضخماً ، فرأَى المُثَنّى أن يَنْسَحِبَ من الحِيرَةِ حتّى لايُطبِقَ الفُرسُ على قُوّاتِه الصّغيرةِ . وأسْرعَ إلى المَدينَةِ يَشْرحُ الموقفَ لِلخليفةِ ، ويَطْلبُ منه المَدَدَ ، وكان أبو بَكرٍ مُقبلاً على لِقاء ربِّه ، فأوصَى عُمَرَ بنَ الخطَّابِ بأن يُجيبَ طلبَ المُثَنّى . .

وتُوُفِّيَ أبو بَكرٍ ، وآلتِ الخلافةُ إلَى عُمَر بنِ الخطّابِ ، فبعثَ « أبا عُبَيْدٍ الثّقَفِيَّ » قائداً عامًّا لِلمُسلمينَ بالعِراقِ . .

ثم دارتْ بيْنَ العَرَب والفُرسِ مَعركةُ « الجسْرِ » الّتى سُمِّيتْ كذلِك نِسْبةً إلى الجِسرِ الذى أقامهُ العَربُ منَ الزوارقِ ، وعَبَروا فوقَه الفُراتَ لمُلاقاةِ الفُرسِ علَى ضِفَّتِهِ الشّرقيّةِ . وَاسْتُشهِدَ فى هٰذهِ المَعْركةِ عَددٌ كبيرٌ من المُسلمين ، فقَد هاجَمَهُمْ الفرسُ غَدَراً قَبْلَ أن يَتِمَّ عبورُهم ، وقدَّموا الفِيَلةَ فأرْعَبَتِ الخُيولَ العَربيةَ ودفَعتْها إلى الفِرارِ . .

واستُشهِدَ أبُو عُبيدٍ الثقفىُّ ، ومُعاوِنوه ، فاضْطربَ العَربُ وأرادُوا الانسحابَ إلى غَرب الفُراتِ . . إلَّا أنَّ واحداً منهم قطَعَ رباطَ الزَّوارِقِ الأُولَى من الجِسر ليُرغِمَهم على الثَّباتِ والقِتالِ !

وَتكاثَرَ الفُرسُ على المُسلِمين ، فارتَفَع عددُ القتلَى والجَرحَى . .

ولم يُنْقِذِ المَوقفَ غيرُ المُثَنَّى الذى أمَرَ بإصلاحِ الجِسرِ ، ووقف يُقاتِلُ فى بُطولةٍ فدائيَّةٍ ، ويَحمى الرِّجالَ وهم يَعْبُرون وأصابَهُ رمْحٌ بجُرحٍ ، لكنَّه لَم يَهْتمَّ بالألَمِ . . وَثَبتَ فى موقفِهِ

يُدافعُ عن رأس الجِسرِ حتّى عَبَر المُسلمونَ جميعاً . .

ولم يلْبَثِ المثَّنى أن تُوفِّى متأثِّراً بالجُرحِ الذى أصِيبَ بِه فى هٰذهِ الْمعركةِ !

٣
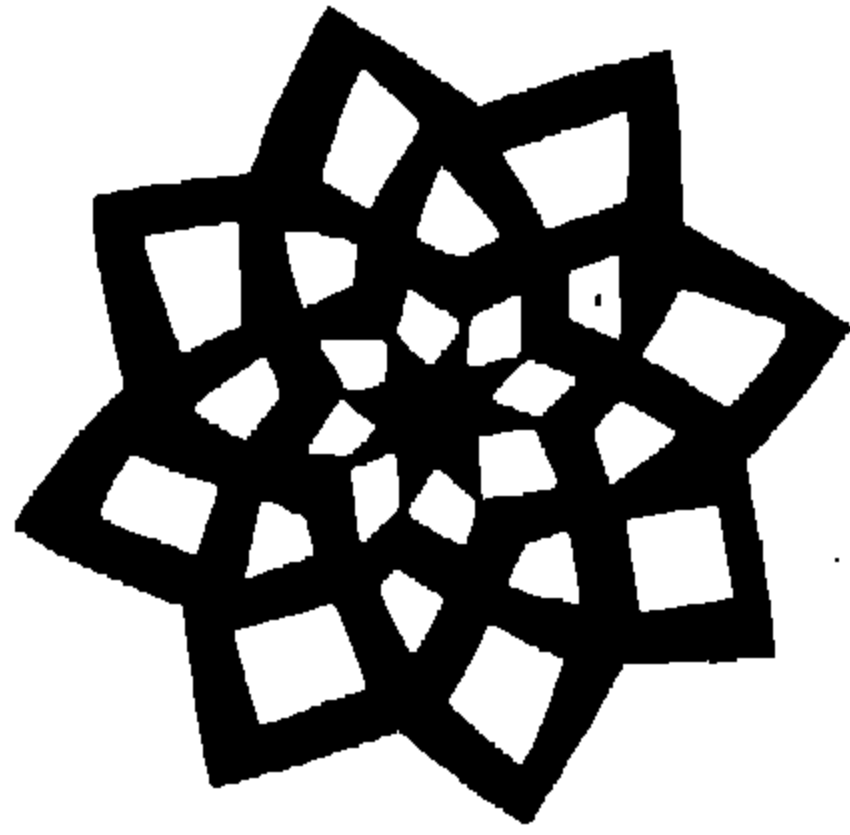
بلغَتِ الأَنْباءُ المَدينةَ فأقْلقتِ الخسائرُ التى أصِيبَ بها المُسلمونَ فى موقعةِ الجِسرِ عُمَرَ بنَ الخَطّابِ قَلقاً شَديداً جعَلَه يفكّر فى المَسيرِ إلى العِراقِ ، لِيقُودَ المُجاهِدينَ بَنفْسِه ، لكنَّ الصَّحابَة أشارُوا عليْهِ أن يُسْنِدَ هٰذه المُهمَّة إلى قائدٍ مَشْهودٍ له هُو « سعْدُ بنُ أبى وقَّاصٍ » .

وَسعْدُ بنُ أبى وقَّاصٍ بَطلٌ مَعروفٌ ، نَشأَ بعِيداً عن اللَّهو ، وشغَل طُفُولتَه وشبابَه بإتقانِ صِناعةٍ منَ الصِّناعاتِ الحرْبيّةِ الهامَّةِ فى زمانِه : بَرْىِ السِّهامِ .

وأَسْلَمَ وعُمُره سبْعةَ عَشرَ عاماً . .

وفى مَعْركةِ « أحُدٍ » وقفَ سَعدٌ يُدافِع عنِ الرَّسولِ ، ﷺ ، ويَرمِى الكُفَّارَ بألْفِ سهمٍ فلا يُخطِئُ هَدَفَه مرَّةً واحِدةً . . والرّسولُ يُبارِكُه ويُشجِّعُه قائلاً : ارْمِ سَعدُ . . فِداكَ أبى وأمِّى !

وكان يَجمَعُه والرسولَ ، ﷺ ، صِلةُ النّسبِ ، والرّسولُ يختَصِر التَّعبيرَ عنْ تلكَ الصِّلةِ فَيدعُوهُ « خالِي » !

عقَدَ الخَليفةُ لِسعْدٍ إِمْرةَ الجيْشِ ، فقادَ سعدٌ رجالَه حتَّى أتى « القادِسيَّةَ » ، وأقامَ مُعَسْكَرَه بينَها وبيْن فَرعٍ صغيرٍ من الفُرات يُدعَى « العَتيقَ » . . ومن هُناك راحَ يُرسلُ الحَمَلاتِ لِتَشُنَّ الغاراتِ عَلى الحامِياتِ الفارسيَّةِ فى المَناطِقِ المُجاورةِ . وبعَثَ وفْداً إلى « يَزْدَجَرْدَ » . . كِسْرَى الفُرسِ . . يَدْعُوه إلىَ الإِسْلام ، إِلَّا أنّ يَزْدَجَرْدَ لم يَشْرَحِ اللهُ قَلْبَه للإِيمانِ . . فاسْتَقبلَ رجالُ الوَفْدِ استِقْبالا خَشِناً ، وهَدَّدهُمْ بأنّ قائِدَه « رُسْتُم » سوفَ يَدفِنُهم جميعاً فى خَنْدقِ القادِسيّة !

وأرادَ أنْ يُهينَهم ، فَسألَ عن أشْرفِهم ، وأمَر بأنْ يُوضَعَ فى عُنُقِه حِمْلٌ من التّرابِ غيْرَ أنَّ الرجالَ عادُوا إلى سَعْدٍ فَرحينَ مُسْتَبْشرينَ يَقُولُونَ لَهُ : أبْشِر فَواللهِ لقَد أعْطانا كِسرَى تُرابَ أرضِه !

وكانَ رُسْتُم يَعرِفُ قُوَّةَ العَربِ وشِدَّتَهُم فى الحَرْب ، ويَتمنَّى أنْ يهتَدِىَ إلى طَريقةٍ تَصْرِفُهم عن قِتالِه . . فسَألَ سعْداً

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ

أنْ يوفدَ إليه رسُولاً يناقِشُه ويَعرِفُ منه مَطالبَ العَربِ . ولَم تَكنْ مطَالبُ العَربِ كثيرةً ، أو غَريبةً ، فالإسلامُ يُنهِي كلَّ خلافٍ بيْـنَهم وبيْنَ غَيرِهم منَ الشُّعوبِ . . ومَنْ أسْلَمَ من تِلكَ الشُّعوبِ أصْبحَ لَهم أخاً فى الدِّين ، لَهُ ماللِمُسلمينَ جَميعاً ، وعَليهِ ماعليْهم . ومَنْ يَدفَعِ « الجِزْيَةَ » يَدخُلْ فى ذِمَّةِ المُسلمينَ ، فيُدَافعوا عنه ويحْفظُوا عَهْدَه . .

هل يَقبَلُ رُسْتُم الإسلامَ ؟

هل يَرضَى بدَفْع الجِزْيَةِ ؟

لاهٰذا ، ولاذاك ! . .

لايَبقَى لِلعربِ إذَنْ إلَّا أن يُقاتِلوهُ !

وَيسمَعُ رُسْتُمُ كَلِماتِ الرّسولِ ، فَيغْضبُ ويُسِيءُ خِطابَه ، ثم يَعودُ فيطلُبُ رسولاً آخرَ . . مرَّةً ومَـرَّتَيْن . .

وفى المرَّةِ الثّالثَةِ بَلغ الغَضبُ به حَدًّا جَعَلَه يفقِدُ صوابَه ، ويُصيحُ مُتوعِّداً :

– وَالشَّمسِ لايَرتَفِعُ لكمُ الصُّبحُ غداً حتَّى أقتُلَـكُم أجمَعين !

٤

أصابَ المَرضُ سعد بنَ أبى وقَّاصٍ ، وأقْعَدهُ عنِ الحَركةِ ، فكانَ يُدبِّر أمورَ جُنودِه وهو راقدٌ فى الفِراشِ . فلمَّا رفَضَ يَزْدجَرْدُ وقائدُهُ رُسْتُم دَعْوةَ السَّلام الَّتى وجَّهَها المسْلِمونَ إليْهما ، ولَم يَعُدْ مَفَرٌّ منَ القِتالِ خَشِىَ سَعدٌ أن يَظُنَّ الجُنودُ احْتِجابَه تهاوُناً أو تَخاذُلاً . . فسألَ أصحابَه أن يَحْمِلوه ليُشْرِف عَلى الجيْشِ ويَراه الجَميعُ فيَعرِفُوا أن السَّببَ فى غَيْبَتِه عنِ المَيْدانِ هو المَرضُ حقًّا .

وبَدأَ الاستعدادُ للمَعركةِ . .

كانَ عددُ المُسلمينَ تحتَ قِيادةِ سعدٍ وأصْحابه ثمانِيةً وعِشرين ألفَ مُجاهِدٍ ، على حينَ بَلَغَ مَجْموعُ الجَيشِ الفارسِىِّ تحتَ قِيادةِ رُسْتُمَ مِائَةَ ألفِ جُندىٍّ — وأقْبَل الفُرْسُ من الشّرقِ ، فتَركهُم سَعدٌ يَعْبُرونَ العَتِيق ، وبقىَ فى مَوْقعِه الّذى اخْتارَهُ من قَبلُ . . يَحمِيهِ منَ الخَلْفِ خَنْدَقٌ كَبيرٌ كان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ

الفرسُ قدْ حَفَروهُ ليَصُدُّوا هُجومَ البَدْوِ علَى العِراق . .

ومنَعَ سعدٌ جنودَه منَ القِتالِ إلى أن أقامُوا صلاةَ الظُّهْر ، لتَتقَوَّى بِالصَّلاةِ نُفوسُهم وتَشْتدَّ عزيمَتُهم . .

ولم يَعُقِ المَرضُ بَطَل أُحُدٍ عن الوَفاءِ بواجِباتِ القِيادَةِ ، فقدْ طلَبَ مِنْ رجالِه أن يَحْمِلوه إلى سَطْحِ الحِصْنِ الذى كانَ يُقيمُ به . . ومن هُناكَ أطَلَّ يُتابعُ المَعْرَكةَ ، ويُصدِرُ أوامِرَه إلَى واحدٍ من رجالِه يَقِفُ تحتَ الحِصن ، فيُسرِعُ الرجُلُ بإبْلاغِها إلى المُكلَّفِينَ بأدائِها . .

وهجَمَ الفُرْسُ ، تتقدَّمُهم الفِيلَةُ فترُهِبُ الخُيولَ العَربيَّةَ . . وتَضْربُ الفُرسانَ بخَراطِيمها ، وتَدوسُ من يَعترَضُ طرِيقَها . وشاهَدَ سعدٌ هُجومَ الفِيَلَةِ يَشتَدُّ على إحدَى الفِرقِ ، فأصْدَر الأمرَ بِنجْدَتِها ، واستَشار فى الوقْتِ نَفسِهِ قائداً من قوَّادِه صاحبَ خِبْرةٍ وتَجْرِبةٍ . . هو « عاصمُ بنُ عَمْرٍو التَّميمىّ » . .
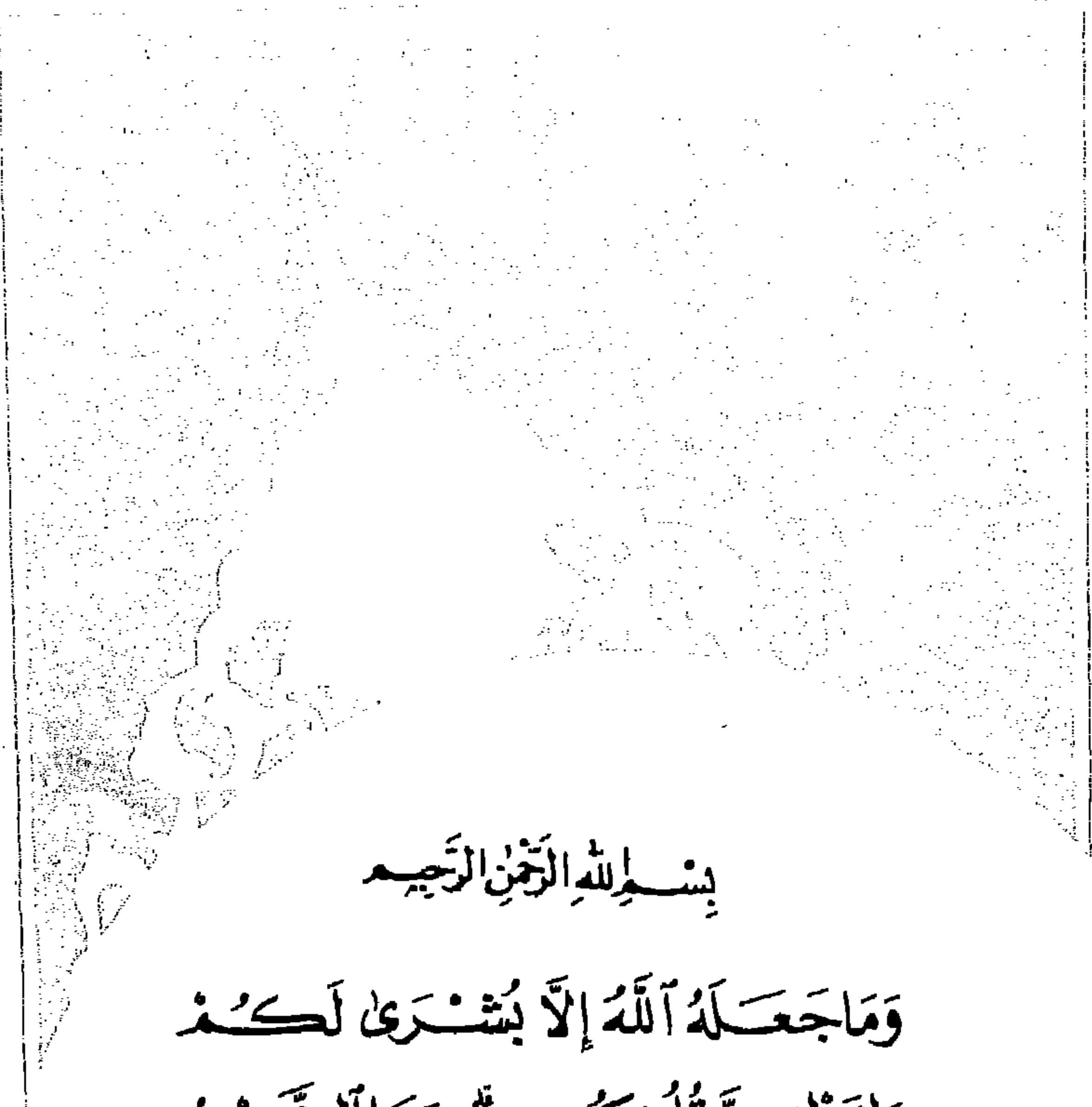
فكلّفَ عاصمٌ الرُّماةَ إسقاطَ الفُرْسِ من فَوقِ الفِيَلَة . فلمَّا تَمَّ لهُم ذلكَ حَوَّلوا سِهامَهم إلى عُيونِ الفِيَلَةِ التى ولَّتْ هاربَةً

وهى تَصِيحُ من شِدَّةِ الألَمِ ، وحَطَّمتِ الصَّناديقَ المَشْدودَة فَوقَها لِيَحتَمِيَ بها الجُنودُ . .

واسْتَمرَّ القِتالُ إلى أَنْ فصَلَ اللَّيلُ بيْنَ الجَيْشَيْنِ . .

وفى اليوْمِ الثَّانِى أقبَل « القَعْقاعُ بنُ عَمْرٍو التَّميمىُّ » . .

كانَ القَعْقاعُ يَقُودُ كتِيبةً من أَلْفِ فارِسٍ ، انْطَلقوا من الشَّامِ طَليعةً لفِرقَةٍ أمرَ الخليفةُ بمَسِيرِها إلى العِراق مَدَداً لجَيشِ سَعدٍ . وعندما اقْتَرب من مَيْدانِ المَعْركةِ قَسَّم القعقاعُ كتِيبتَه عَشْرَ سَرايا ، أخذَتْ تَتقدَّم واحدةً بعدَ الأُخْرَى ، لِيكونَ فى تَتابُعِ وصولها مايُوحِى للعربِ والفُرسِ جميعاً بأنَّ النّجْدةَ الآتيةَ كبيرةٌ !

وارْتفعَت روحُ العَرَب المَعْنويّةُ وهمْ يَرَوْنَ القَعقاعَ يَخْتَرِقُ الصُّفوفَ ليبارِزَ قائِداً فارِسِيًّا ويَصْرَعَه ، ثم زادَ تكبيرُ السَّرايَا حَماستَهم ، فهَجَموا عَلى الفُرسِ هُجوماً شَديداً ومزَّقوا صُفُوفَهم . .

ولم تَشْتَرِكِ الفِيَلَةُ فى المَعْرِكةِ ذلكَ اليومَ ، لأنَّ الفُرْسَ لم يتمكَّنُوا باللَّيلِ من إصلاحِ التَّلَفِ الّذى أصابَ صَنادِيقَها .

بسم الله الرحمن الرحيم

وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ

أمّا العَرَبُ فقَد ألْبَسُوا إبِلَهُم البَراقعَ ، فأزْعَجَ مَنْظرُها خَيْلَ الفُرْس ، وجعَلها تَنْفِر برُكّابِها ، وتُشيعُ الاضطرابَ حَولَها !
واتَّصلَ القِتالُ إلى مُنتصَف اللَّيلِ . .

٥
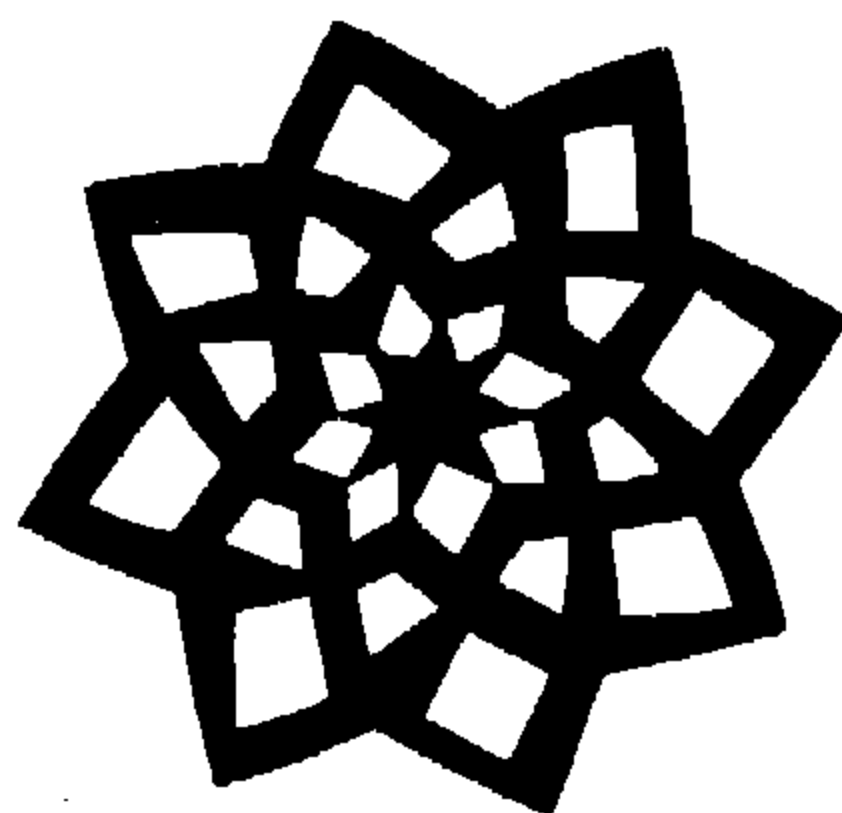
وفى اليَومِ الثّالِث تمَّ النَّصْر لِلعربِ .

أشْرَقَتِ الشمْسُ ، ووقَفَ الفرِيقانِ يَسْتعِدّانِ ، وإذا بالفِرقةِ التى خَرجَتْ من الشّام مدداً لجَيْشِ سَعدٍ تصِلُ إلى مَوْقِعِ القِتال . . ويَرتَفِع تكبيرُ رجالِها ، فيُكَبِّر لتكبيرِهم جيشُ العِراقِ . .

وبدأت المَعرَكةُ . .

قدَّمَ الفُرسُ الفِيَلةَ مَرةً أخرَى بعدَ أن أصْلَحوا صَناديقَها ، وأحاطُوها بالفُرسانِ للدِّفاع عنها . وكان علَى رأس الفيَلَةِ فِيلان ضَخْمانِ ، واحِدٌ أبيضُ والآخَرُ أجْرَبُ ، والفيَلَةُ جميعُها تتبَعُهُما . فشقَّ عاصمٌ والقَعْقاعُ طَريقَهما إلى الفِيلِ الأبْيضِ وطعَناه فى عَيْنَيْه ، وفى الوَقتِ نفسِه كانَ فارسان عَربيّانِ آخَرانِ يَفْعلانِ فِعلَهُما بالفِيل الأجْربِ . وانْسحبَ الفُرسانُ العَربُ بِسُرعةٍ تارِكينَ الفِيلَ الأبيضَ يتَخبَّطُ فى دمائِه والفِيلَ الأجْربَ يَصرُخُ مُندفِعاً

إن الله يدافع عن الذين آمنوا
إن الله لا يحب كل خوان كفور

إلى العَتِيقِ فيعْبُره هارِباً ومِنْ ورائِه بَقِيَّةُ الفِيَلَةِ !

وانتَهَزَ العَرَبُ الفُرْصةَ فشَنُّوا هُجوماً قَوِيًّا على الفُرْس ، إلَّا أنَّ الفُرسَ كانوا أكثَرَ عدداً . . وظَلُّوا يُقاتِلون بشَراسةٍ . . فاستَمرَّتِ المَعركةُ إلى صباحِ اليومِ التّالِى !

وأخيراً هبَّت ريحٌ شَديدَةٌ فأطارَت مِظَلَّةَ رُسْتُمَ عن سَريرِه ورَمَتْها فى العَتيقِ ، وكان رُسْتمُ يجلِسُ على سَريرِهِ كعادةِ القُوَّادِ الفُرْسِ . . فحَمَّس القَعقاعُ جنودَهُ وزحفَ بِهم إليه . وركِبَ الفزَعُ رُسْتمَ، فأسْرعَ إلى العَتِيق يُريد أن يَعْبُره ، إلَّا أن فارساً عربيًّا رآهُ فَنزلَ الماءَ وراءَهُ وقَتَله . . ورجعَ يَصيحُ قائِلاً :

– قتلْتُ رسْتُمَ وربِّ الكَعْبَة !

وعَلِم الفُرسُ بِمَقْتَلِ قائِدهم فانْهارَت عَزِيمتُهم وشَرعُوا فى الانسحاب . .

وطارَدَهُم العَربُ ، وأَسَرُوا مِنهُم عدداً كبيراً ، واسْتَولَوْا على غَنائِمَ تَفوقُ قيمتُها المِلْيونَينِ منَ الدَّارِهِم . وكانَ من بيْن ما اسْتَوْلَوا عليه عَلَمُ الفُرْسِ الأكبَرُ ، وقدْ صَنَعُوه من جِلْدِ النَّمِرِ ، وعَدُّوه رَمْزاً للنَّصرِ لايُغْلَبون وهم يَرفَعُونه !

وهكذا انتهتْ معركةُ القادسيَّةِ بهزيمةِ الفُرسِ ، لم يُنْقِذهم منها غُرورُ رُستُمَ الّذى أقْسَم بالشَّمسِ أن يَقتُلَ العربَ أجمَعينَ . . ولم يَحمِهم عَلَمُهم الأكبرُ ! .

تَمَّ ذٰلِكَ فى يومٍ عَظيمٍ من أيَّامِ العَربِ الخالِدةِ فى العامِ ٦٣٦ الميلادِىّ . .

وبعثَ سَعْدٌ رسولاً يُبشِّرُ الخليفةَ بالنَّصْر ، فمرَّ الرسولُ فى طَريقهِ إلى المدينةِ بأميرِ المؤمنينَ ، وكان عُمرُ بنُ الخَطّابِ قد سارَ إلى خارجِ المَدينةِ ينتَظرُ الأخْبارَ ، فَلما لقِىَ الرسولَ سألهُ عن مَقْصِده ، ولم يعْرِفِ الرسولُ عُمرَ ، فأجابَه قائِلاً : إنه رسولُ سَعدِ بْنِ أبِى وقّاصٍ إلى خَليفةِ رسولِ اللهِ ، ﷺ . . ثُمَّ استَحثّ ناقتَه إلى المَدينةِ . .

وجَرى عُمرُ بنُ الخَطَّابِ وراء الرَّجلِ ليِسألَه عن نتيجةِ المعركةِ !

قال الرَّجلُ لِعُمرَ :

– لقد هزَم اللهُ المشركينَ !

وأسْرعَ فى طريقِه . .

وفى المَدينةِ يَعرِفُ الرَّجُلُ أن الّذِى كانَ يَجرى وراءَ ناقتِه هو عُمَر ، فيَسْتَولى عليهِ الخَجَلُ . . والخَوفُ . .

عِندَئِذٍ يقولُ لهُ عمَرُ مُطَمْئِناً :

– لابأسَ عليكَ ياأخِي ، فإنَّما نَحْنُ إخْوةٌ . . وإنَّما كان يَهُمُّنِى ماجِئتَ به . .

ويأخُذُ فى سؤالِه عن تَفاصِيلَ المَعركة . .

ويَطْمَئِنُّ عُمرُ بنُ الخَطّابِ إلى أن النَّصرَ كانَ حاسِماً ، وأنّ راياتِ الإسلامِ أصبَحتْ تُرفرِفُ على دَوْلةٍ قويَّةٍ تَضُمُّ العِراقَ والشَّامِ إلى شِبْهِ الجَزيرةِ العربيّةِ . .

فلْيسترِحِ المُجاهِدُون إذَنْ ، ولْيَشْرعُوا فى بناءِ المُدُنِ الإسلاميَّةِ بالعراقِ : الكُوفَةِ . . والبَصرةِ وغَيرِهما . .
ولكنْ لِيكونُوا دائِماً على أتمِّ استعدادٍ . . فمَنْ يَدرِى ؟

رُبَّما وسْوَسَ للفُرسِ أو الرُّومِ – شياطِينُهم . . وحَفَزهم الكِبْرُ والغُرورُ إلى تَهديدِ الدولةِ الإسلاميَّةِ !

عِندئذٍ تَجْرِى الخَيْلُ بِالمُجاهدينَ منْ جديدٍ ، تَحمِلُهم مرةً أُخْرَى إلى مَيادينِ القتالِ . . مَيادينِ البُطولةِ . . وتَعودُ راياتُ الإسلامِ تَتقدَّمُ لِتُرفرِفَ على بلادٍ جديدةٍ !
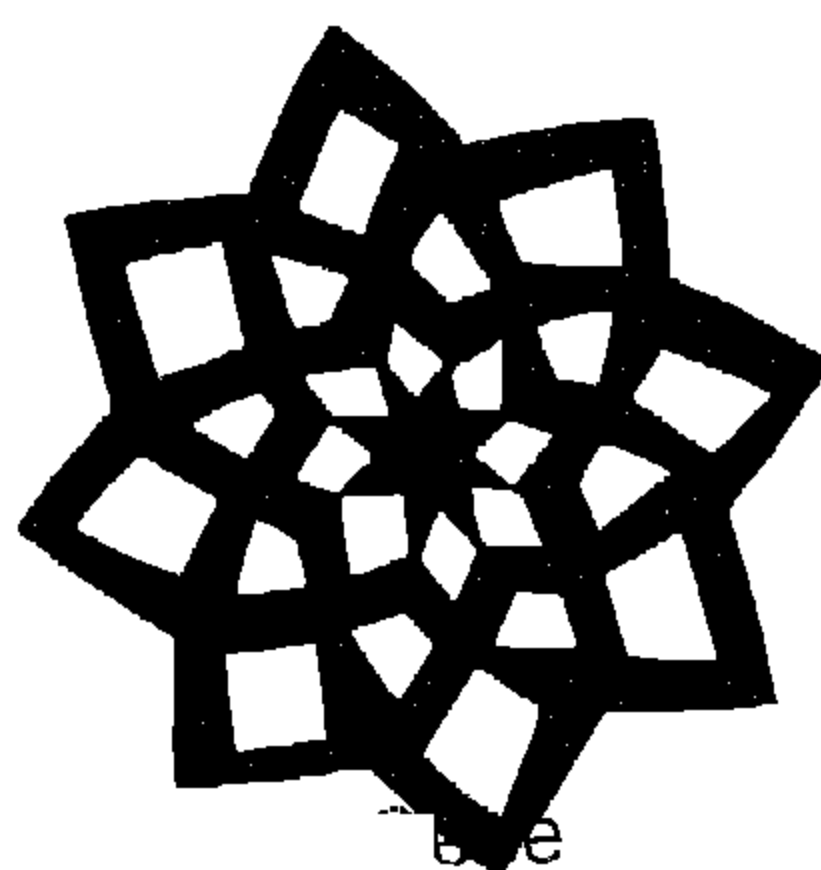
رقم الإيداع		١٩٩١ / ٣٦١٢
الترقيم الدولى	977 - 02 - 3254 - 8	ISBN

١ / ٩١ / ٧٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

رايات الإسلام

١ - فى اليمامة
٢ - فى اليرموك
٣ - فى القادسية
٤ - فى عين شمس
٥ - فى نهاوند
٦ - فى ذات الصوارى
٧ - فى المغرب
٨ - فى الأندلس
٩ - فى حطين
١٠ - فى المنصورة
١١ - فى عين جالوت

دار المعارف